

أحمد كمال عبدالله ..

شاعر مسلم من ماليزيا

د. محمد مصطفى بدوي *

دخل الإسلام إلى جزر الملايو في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، ولم يكن ذلك عن طريق السيف أو الفتوحات العسكرية، بل كان عن طريق الاحتكاك التجاري - الاقتصادي والثقافي، وقد دخل أبناء الملايو بمجملهم في الإسلام، وحملوه بقوة ومايزالون، ويذخر الأدب الملايوي القديم بالمواضيع الإسلامية المستقاة في معظمها من التراث الإسلامي العربي القديم، ومنها سيرة حياة الرسول ﷺ، وقصص من حياة الصحابة رضي الله عنهم، بالإضافة إلى تواريخ وقصص مغامرات أخرى.

عبدالله، الذي اتخذ له اسماً «فنياً» عرف به هو «كمالا» (kemala).

ولد الشاعر في إحدى ضواحي العاصمة الماليزية كوالالومبور في العام ١٩٤١، وقد عمل في بداية عمره المهني في التدريس، وكتب بعض القصائد والأقاصيص والمقالات الأدبية، ثم تطور اهتمامه بالشعر، فنشر عدداً من الدواوين الشعرية، نذكر منها ميد يتاسي (تأملات) في العام ١٩٧٢، وعين (عين) في العام ١٩٨٣، وقد نال عدداً من الجوائز التقديرية في المهرجانات الشعرية التي تقيمها الهيئات الأدبية في ماليزيا، عن عدد من أعماله الشعرية في السنوات ١٩٧٢، ١٩٧٥، ١٩٨٢، ١٩٨٣، وقد شغل منصب الأمين العام للاتحاد الوطني للكتاب الماليزيين من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٤، وكان رئيس الرابطة الوطنية للأدباء الماليزيين بين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤، وله بالإضافة إلى الشعر كتابات في القصة والنقد الأدبي، ويذكر أنه أدى فريضة الحج منذ عامين.

وتنضج قصائد كمالا (القصائد منها والمطولات) بالاهتمامات والمقاصد الإسلامية المختلفة، من الروحية الذاتية الشخصية، إلى الوطنية، إلى الاهتمام بشؤون الأمة

وقد حافظ الشعر الماليزي الحديث في معظمه على وشائج قوية مع التراث الإسلامي بشكل عام، ومع العربي على وجه الخصوص، والمتصفح للروايات الماليزية والشعر الماليزي المكتوبين في القرن العشرين (وبخاصة بعد الاستقلال في ١٩٦٣) يجد أن الإسلام لا يزال في مقدم اهتمامات الأدب الماليزي. ونجد في الشعر الماليزي كل ما نعهده من مقاصد الشعر الإسلامي، من مثل مدح الله عز وجل والتغني بحبه الذي يلامس شغاف القلوب، وكذلك التغني بحب الرسول المصطفى ﷺ. كما يجسد الشعر الماليزي المعاصر هموم الشعب والأمة، وتظهر فيه نبرة الحزن والأسى للوهدة التي يتردى فيها المسلمون بابتعادهم عن الإسلام اليوم. ونجد الشعراء الماليزيين المسلمين، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم من شعراء الإسلام في كل من مكان من العالم الإسلامي، يعبرون عن الغضب والحزن والتفجع إزاء ما يشهده عالم المسلمين اليوم من اعتداءات صارخة، وانتهاكات لأبسط المبادئ الإنسانية، يمارسها أعداء الإسلام تحت سمع العالم وبصره، ولا من مجبر.

ومن أهم شعراء ماليزيا الشباب، الذين يحملون الإسلام في قلوبهم وفي شعرهم، الشاعر أحمد كمال

* رئيس قسم اللغة الإنكليزية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية، له بحوث في آداب الشعوب الإسلامية.

... مع أنني لا أعدو
أن أكون ذرة، فهذا حبي الذي تنفخ أنت فيه
الروح والإيمان ...

ويختم الشاعر قصيدته برؤية نور الله في كل شيء:
في ومضة النور ليس هناك إلاك.

وفي قصيدة مطولة تحمل عنوان «عين» يطوف الشاعر
في مشاهد من التاريخ والتراث الإسلامي، يعرضها علينا
مستخلصاً منها العبر والدروس، وهنا أيضاً يجدر أن نلاحظ
أن العنوان المأخوذ من اللغة العربية يشير إلى العين الداخلية أو
البصيرة، في المشهد الأول ينقلنا الشاعر إلى:

أمام كهف حراء
المغطى بنسيج العنكبوت

وتتوالى المعاني والأفكار، ويتذكر الشاعر ساكن ذلك
الغار عليه الصلاة والسلام وصاحبه، ويدعونا لمشاركته
الدهشة والدفء والحب التي تثيرها في النفس تلك المشاهد:

النبى الأمين سكن هنا،
وكذلك أبو بكر الصديق الذي أحبه حباً عظيماً
إن أصداء رحيل النبى لاتزال تتردد في الدروب
المدينة، مدينة النور تداعبني
وأقف مأخوذاً أمام الألحان الدافقة

في المقطع الثاني تطالعنا قصة آسيا زوجة فرعون
المؤمنة، وفي الثالث تنتقل إلى مشاهد من حياة رابعة العدوية،
أما في المقطع الرابع فيسرد علينا الشاعر قصة أهل الكهف:

إذا كانوا قد ناموا ثلاثمئة سنة
بأمري

إذن ما الحاجة للمنطق؟

أما المقطع الخامس فيروي مشاهد من حياة النبيين
الكرمين: إبراهيم وموسى عليهما السلام، وفي المقطع
السادس مناجاة يرفعها الشاعر إلى الذات العلية:

يا رب، تقبل تلك النجوى التي تشدها روحي.

المقطع السابع يعالج مشاهد من رحلة الإسراء والمعراج،
أما في المقطع الثامن فترافق هاجر زوجة إبراهيم في سعيها بين

الإسلامية الواسعة. وقصائده التي تعالج الشأن الروحي تعلن
بوضوح حب الشاعر العميق لله عز وجل، وللنبي ﷺ، وهو
في ذلك يشارك الطبيعة بمظاهرها المختلفة الحية منها والجامدة،
أما قصائده الوطنية فتعبر عن القلق الذي يساوره من ابتعاد
مواطنيه عن جادة الصواب والحق، ومن انحراف الشعب وراء
الأوهام التي تبعتها الحضارة الغربية المجافية للإسلام.
وبالانتقال إلى القصائد التي تعبر عن هموم الأمة نجد الشاعر
يتألم لما يحل بالشعوب الإسلامية (وخاصة في فلسطين وفي
البوسنة والهرسك) من ويلات على أيدي الأعداء، وعلى
مرأى ومسمع من العالم الذي يقف موقف المتفرج.

ولنبحث أولاً في قصائده الروحية التي يمكن أن تعد في
مصاف روائع الأدب الإسلامي على مر العصور، في قصيدة
قصيرة بعنوان «حميم» (Hamim) يصور الشاعر العلاقة
الوثيقة التي يرى أنها تربطه بالخالق الرحيم، الذي يحفظه من
الويلات ومن الانحراف، وتمتلى القصيدة بالرموز الموحية،
وغني عن البيان أن العنوان - المأخوذ إما من أوائل سور
الحواميم أو من الكلمة العربية «حميم» بمعنى الصديق والخليل
- مشحون بالإيحاءات الروحية:

عاد المسافر بعد سنوات من الترحال
إلى قريته سالماً ولم
يعطب فيه عضو، بل، على العكس
لقد ازدادت خبرته

فالمسافر هو الشاعر نفسه الذي طوف في الآفاق الروحية
والعالمية، وعاد إلى موطنه أو ذاته سالماً، وهو يرى الفضل في
ذلك لله عز وجل ولرحمته ولطفه:

يا من أنت هو اللطيف، أنت حميتني،
ولذلك لم تأكلني السباع الجائعة والثعالب الوحشية.

والشاعر، رغم إتضاعه كمخلوق فإن الله قد وهبه
التكريم والرفعة بمنحه الحب الذي يربط قلب الشاعر إلى الذات
العلية:

**الغيرة على الدين متأججة في
قصائد شاعرنا، وبغيته حكمة**

اتسعت قصائد الشاعر لتحتوي هجوم الأمة الإسلامية ..

ومن الواضح أن قصائد كمالات التي تهتم بالشأن الوطني نابعة من قلب متألم لما يعتري مجتمعه ووطنه من هنات ومفاسد، وهي تارة تتفجر ألماً وغضباً بأسلوب جزل، وطوراً تتخذ شكل السخرية المرة، تعود في نهاية المطاف إلى الطلب لله عز وجل أن يحفظ ذلك الوطن من الفساد والانحراف، وتعود لترى في دين الله المنقذ من التفكك والتحلل. ونلاحظ أن الشاعر يوجه سهام الانتقاد إلى الممارسات الفاسدة في مختلف مناحي الحياة، من سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وبيئية وغيرها.

ففي الناحية السياسية نجده مثلاً ينتقد حمل أعضاء مجلس النواب، فيتساءل بتهكم مرير في قصيدة «موزاييك»:

هل لا يزال السادة الكرام أعضاء مجلس النواب نائمين
في قاعة المجلس؟

ثم يعود في القصيدة ذاتها ليخاطب رئيس الوزراء:

دولة رئيس مجلس الوزراء
... أنا أنقل إليك مطلب الشعب
أن تكشف الغطاء : الحسابات المصرفية
للسادة الكرام النواب والوزراء!

ويعود في قصيدة «ومباباهومبابي» ليتساءل عمن سيخلف رئيس الوزراء، مثيراً بذلك قضية أهمية الاستقرار السياسي ومصير المسلمين في ماليزيا:

بعد أن يترك «محاضر» مركزه
من سيكون رئيس الوزراء التالي؟

ويكتسب هذا التساؤل حدة وأهمية إذا أدركنا طبيعة الحياة السياسية في ماليزيا، فصحيح أن السياسة والحكم والجيش والشرطة والإدارة كلها بيد الملايو المسلمين، ولكن لا يغفل المراقب عن حقيقة أن العنصر الصيني (الذي شجعه الاستعمار البريطاني على القدوم والاستيطان في البلاد في أثناء احتلاله لها) يشكل ما يقرب من نسبة ٤٠٪ من السكان،

الصفاء والمروءة حتى تفجر ماء زمزم في قلب الصحراء:

هاجر حلت السر، ماء زمزم العذب
أعلن حبها وشوقها.

وبالانتقال إلى قصيدة ثالثة، «سمعت» (I Heard)، نجد الشاعر يعلن حبه على الملأ، وهو في ذلك يشترك مع سائر مخلوقات الله من حيوان وجماد ومظاهر طبيعية:

سمعت الريح المتعبة تهمس للجبال
عند غروب شمس آخر يوم من شهر الصوم:
«هناك في بلد بعيد
ولد شاعر يحب الله عز وجل».

وحال الريح في ذلك هو حال دودة الأرض التي «تخبر طفلتها»:

«هناك رجل يغني للحب
للأرض، للسماء
لك، لي، لله ولنبيه!»

والهمس نفسه حول جنون الشاعر بالحب الإلهي نسمعه من حوريات الأزهار المائتة، ومن الأعشاب البحرية، ومن الأصوات المكتومة في الغابات، ومن الصبايا يتوضأن استعداداً لصلاة الفجر، ومن النصال التي تعد لتكسير الجبال والصخور، وأخيراً من البرق الذي يدمر كل شيء في طريقه.

وهكذا نرى أن الحب الذي يكنه كمالات لله ولنبيه يظهر واضحاً في قصائده، ولكن هذا الحب لا يجعل من كمالات شاعراً صوفياً بالمعنى التقليدي للكلمة، فهو لم يعزل نفسه في تكية أو زاوية عن قضايا شعبه ووطنه، ونحن نجد الاهتمامات الوطنية مبثوثة في كثير من قصائده كمالات، ولكن سيكون تركيزنا هنا على ثلاث من هذه القصائد هي:

«لا تحزني يا ماليزيا» (Don't be sad my Malaysia)
المكتوبة عام ١٩٨٤.

«موزاييك موزاييك» كوالومبور (Mosaic Mosaic)
Kuala Lumpur من العام ١٩٨٦.

«هومباباهومبابي» (Humpapahumpapi) العائدة
للعام ١٩٨٩.

اتسعت قصائد الشاعر لتحتوي هجوم الأمة الإسلامية ..

ويمسك الصينيون بمقاليدهم الاقتصادي، ولا يتركون فرصة إلا ويغتموها للتعبير عن وجودهم وقوتهم، وأحداث ١٩٦٩ العنيفة لا تزال ماثلة بقوة ووضوح في مخيلات الملايو والصينيين على حد سواء، ولذلك نرى الصينيين في أعيادهم يطلقون المفرقات النارية بكثافة لافتة للنظر، وهذا ما يسجله كمالاتا في قصيدته ذاتها حين يقول :

هو مباها هو مباي
المفرقات المجنونة
تخرب أرضنا
فهل هونغ كونغ
أو بيجينغ هي عاصمة
بلادنا؟

فهو القلق على الهوية الإسلامية الذي يساور الشاعر، كما يساور أبناء قومه برمتهم .

وبالانتقال إلى الهم الاقتصادي نجد الشاعر يغني أحزان الفقراء في قصيدة «لا تحزني يا ماليزيا» :

هناك لدى صيادي الأسماك أغان حزينة
هناك أغان بلا إيقاع يغنيها الفلاحون الفقراء
الباحثون عن المحبة
بصوت أجش مبجوح

ويلازم هذا الهم الشاعر مرتبطاً مع فضائح الرشوة والفساد، المصاحبين للازدهار والتطور الاقتصادي، فنجد في قصيدة «موزايك» يشير إشارات خاطفة بجمل وعبارات مقطعة، إلى المظهر الاقتصادي البراق، الذي يخفي وراءه مشاكل اقتصادية بعيدة الغور، ترتبط بأخلاق الساسة ورجال الأعمال، فينتهي إلى التحذير من أخطار الديون الحكومية .

كم يبلغ مقدار الدين الوطني عندنا؟
الحرية! العمال يضربون مطالبين برواتبهم
كم يبلغ مقدار الدين الوطني عندنا؟

إذا لم نلزم جانب الحذر
فسترهن ماليزيا عند المرائين!

ويعود هذا الهم إلى الظهور في قصيدة
«هو مباها هو مباي» في أعتاب تخفيض قيمة العملة الوطنية :

هو مباها هو مباي
بعد تخفيض الرينت
ماذا سيكون مصير ماليزيا؟

وبالإضافة إلى الهموم السياسية والاقتصادية يحمل الشاعر في قلبه الهم البيئي، إن التقدم الاقتصادي والصناعي وإنشاء المزيد من المصانع قد أدى إلى تخریب البيئة، وتلوث الأجواء في أمكنة كثيرة. وهذا يملأ نفس الشاعر بالأسى والضيق والقلق على المستقبل، وهو يفتح قصيدته «موزايك» بوصف مشهد لنهر كلانغ، وهو شريان نقل نهري حيوي يصب في مرفأ كلانغ، وهو بدوره مرفأ بحري رئيسي في ماليزيا :

ذات أصيل رمادي، هل لا يزال هنالك شعر
في قلبك يا كمالاتا؟ إن نهر كلانغ
الكثيف الموحل يكتظ بسفن النقل
يلهث ليتنفس، هذا هو العرق
مع اقتراب القرن الحادي والعشرين

ثم ينتقل ليصف الضباب الملوث ودخان المصانع الأسود الذي يملأ الضواحي، ويلازم هذا الهم الشاعر أيضاً ليجد له تعبيراً جلياً في قصيدة «هو مباها هو مباي» حين يقول :

هو مباها هو مباي
هذا الكوكب الأرضي
لا يمكننا استبداله
بواحد آخر

وإذا كان التلوث البيئي يشغل بال الشاعر فإن التلوث الأخلاقي يقض مضجعه ويشير في نفسه أعظم القلق، وهو يوجه النظر للأثر السيئ على الأخلاق، الذي تمارسه وسائل الإعلام عامة، والتلفاز خاصة في «موزايك» نقراً :

الإعلانات والنشرات الفاجرة
أشرطة الفيديو القذرة لها عملاؤها

برامج التلفاز اللاهثة
تلد

ويتعلم الأطفال القتل

على طريقة ماغنوم

على طريقة مستر تي

والقصص العاطفية اللاهبة

على شاشة تلفاز القتال الثالث

ثم ينعي على المنجرفين وراء الإعلام الغربي ابتعادهم
عن القيم الإسلامية :

هل يشبه وجه سويلين

وجه السيدة عائشة؟

مادونا

مثل رابعة العدوية!

ألا تزال هناك ومضات من القرآن

وهو يرد هذا الانحراف في معظمه إلى النظام التربوي
ذي التوجه الغربي :

إن نظام التربية

مثل سفينة منجرفة مع التيار

والريح الغربية الفاسدة تنفخ النار في الرماد

وأمام هذه المشاكل العصية والعقبات الكأداء الجديرة
ببعث اليأس في النفوس، لا يجد الشاعر الأمل إلا في كنف
الله الرحيم، فيلجأ إلى الله الذي لا ملجأ سواه، وفي نهاية
قصيدة «موزاييك» نقرأ هذه المفاجأة :

يا إلهي

احفظ

هذه الأرض

قبل أن تنقرض

قبل أن تختفي

يبتلعها العمالة الجائعون

الجائعون؟!

ولئن كان الشاعر يصرخ في وجه مجتمعه، محذراً من
الفساد والابتعاد عن قيم الأخلاق، فهو في ذلك لا يعدو كونه
ابن هذا المجتمع المحافظ المتمسك بالأخلاق في كل مناحي

الحياة، والشاعر يريد أن يبقى كذلك، وأن يرذل الممارسات
الفاسدة الآخذة في الانتشار .

إلا أن الهم العام عند كمالات لا يقتصر على حدود وطنه
الضيقة، بل نراه يحمل في قلبه وعقله هم الأمة الإسلامية
بالمعنى الواسع للكلمة . فهو يشعر أنه واحد من أبناء الأمة،
التي تتعرض في هذه الأيام للنكبات والويلات، على أيدي
الأعداء، وتتمثل هنا بقصيدتين للشاعر هما «قصيدة الفجر»
التي كتبها عام ١٩٨٢ إبان الحصار الإسرائيلي للقوات
الفلسطينية في لبنان، و«رسالة من سارايفو» التي تعود للعام
١٩٩٢ وتصف حالة الشاعر النفسية إزاء جرائم الصرب بحق
المسلمين في البوسنة .

تبدأ «قصيدة الفجر» بموعده للشاعر مع روح الفاتح
الإسلامي طارق بن زياد :

موعد مع روح طارق بن زياد

...

الإسلام لا يُقهر، تعالوا

نعبر هذي المضايق

...

ترتجف رياح الفجر وتضرب الأسوار

أنت تصرخ كالرعد يمزق السكوت

أحرق السفينة

قاتل

لا طريق للوطن

أرض الأندلس لله

ونحن في رحمته . . .

ظلال الجنود عند الفجر على الشاطئ: الله أكبر

ويتنقل الشاعر بعد هذا المشهد المجيد، إلى مشهد من
العصر الحديث، يضعه في مواجهة المشهد الأول :

ألف حيلة من اليهود وحيلة

وهذا لبنان محاصر

وهذا عرفات وجنوده الستة آلاف يقصفون

ينهمر الرصاص بغزارة، قذائف الهاو

بيروت مدينة الموت

وأكثر ما يحز في نفس الشاعر انفضاض الأشقاء
المسلمين من حول أشقائهم في البوسنة والهرسك، فينادي
بصوت ينضح مرارة:

يا إخوتنا في الدول الإسلامية
ما أخباركم؟ أين أنتم؟
أيها الإخوة في الإسلام، أين أنتم؟

ثم يتوجه الشاعر بالخطاب الساخر إلى القوة الكبرى في
العالم:

والآن تنجبه الأنظار إلى سيادة رئيس الشرطة العالمية
ما هي أولوياتك، سيادة الرئيس؟
أولوياتي واضحة: كرسي الرئاسة!
هم... البوسنة والهرسك
ليست على جدول أعمالي
آسف، أنا آسف

ويعود الشاعر إلى مخاطبة المسلمين بالمرارة نفسها:

إنسوا صرخات إخوانكم في الإسلام
في البوسنة والهرسك

...

دعوا مساجد ساراييفو تموت
دعوا الأذان يصغر في المآذن

دعوا الإسلام ينهار في أرض أوروبا

ويعود الصمت ليلف العالم كما يلف نفس الشاعر:

الأشجار صامته، خط الاستواء صامت
الشمس صامته، القمر صامت
الصمت موحش، الصمت مرعب

ويختتم الشاعر قصيدته بمشهد يذكر بيوم الحساب:

عندما كانت أرواحنا تعبر
قابلتنا ناساً من القرن العشرين
حمقى وغافلين
عن مواجهة يوم الحساب

وهكذا نرى أن هم الأمة المظلومة يسكن قلب الشاعر،
وتزداد المرارة حين يقارن بين ماضي الأمة المجاهد وحاضرها

الموت في كل مكان، اليهود، اليهود
يكتصون دماء الشعوب، إنهضي يا منظمة التحرير
إنهضي بجيشك الصغير وأسلحتك الصغيرة

...

روح طارق في صدره
لن يستسلم، يحمل في عطفه أمة
كرامة الوطن الأم فلسطين

وبعد عقد من السنين كانت الأمة لاتزال تواجه الأعداء
وسكاكين الجزارين، وفي العام ١٩٩٢ تحولت ساراييفو وسائر
مدن البوسنة إلى أراض للقتل، وسالت دماء المسلمين،
وتهدمت مساجدهم، وانتهكت أعراضهم. وقد أثار هذا
الإجرام مشاعر الأسى والغضب في قلوب المسلمين في سائر
أنحاء العالم، وكان الشعراء أشد الناس تأثراً بفضاعة المحنة،
وقد تفجر الغضب في قلب شاعرنا، فعبر عنه في قصيدة
«رسالة من ساراييفو» التي تبدأ بذكر الصمت الذي يلف
العالم:

أشجار صامته، أحجار صامته، بحيرات صامته
غزيت البوسنة والهرسك
مساجد ساراييفو المثة هوجمت ودمرت
وأمرت القذائف الموجهة على البوسنة القتل

...

الشياطين الصرب يغسلون أجسامهم بدم البوسنة والهرسك
يجرعون دموع الأطفال الأبرياء
وصرخات الضحايا

ثم يسخر الشاعر من الأوهام التي تراود البعض بأن
الدول الكبرى ستذهب لنجدة المسلمين:

واشنطن ماما، نيويورك ماما، باريس ماما
بون ماما، لندن ماما، موسكو ماما

...

يا للكارثة
البوسنة والهرسك بلد إسلامي في قلب أوروبا
وميلاد جديد للحمرء وغرناطة؟

مستحيل، مستحيل
أبدًا!

البائس، على أن قلب الشاعر المسلم يتسع لحمل هم كل المظلومين وكل المسحوقين في الأرض، وإن كان معظمهم من المتحمين إلى أمة الإسلام. وهو يشير بإصبع الاتهام إلى القوى الكبرى في العالم، التي تدعي حماية النظام والعدل والحرية، وتكذب كل ذلك ممارساتها. وأوضح دليل هو ما تفعله هذه الدول القوية في الدول الأضعف والأقل حظاً. وفي «قصيدة القوى الكبرى» المكتوبة عام ١٩٨٩ يشير الشاعر إلى حقيقة استيلاء القوى الكبرى على القرار في النظام العالمي، وإلى ضعف منظمة الأمم المتحدة وعجزها عن القيام بالدور المتوط بها:

يا له من استعراض
في مبنى الأمم المتحدة الجبار!
إن قرار الأكثرية
لا يزال يحتاج إلى الموافقة
من القوى الكبرى

ثم يمضي الشاعر في إعطاء الأمثلة على ذلك:

لقد صرخ العالم في وجه سياسة التفريق العنصري
في جنوبي إفريقيا، كان البيض يقتلون السود
وأكدت القوى الكبرى ذلك بقرار النقض!
لقد ساند العالم بقوة منظمة التحرير الفلسطينية
لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة
ولكن الرئيس الأمريكي منع عرفات من دخول
أمريكا

لقد قاتل المجاهدون بشجاعة
النظام - الدمية الذي أقامه الاتحاد السوفيتي
فاستعملت الصين واعية حقها في النقض
إن الاستنكار العالمي
قد تحول إلى مشهد هزل، وها هو ذا لبنان
يشتعل باستمرار، وها هي ذي الضفة الغربية
تصبح حقل قتل وإبادة

ويتتقد الشاعر ما يجري داخل جدران المنظمة من مناقشات واتخاذ للقرارات يشترك فيها مندوبو الدول الضعيفة، وبعد أيام طويلة من المداولات تأتي الدول الكبرى لتقدم الإنذارات:

«لقد دخلتم المنطقة المحرمة
أنتم تحاولون تقويض مصالحنا
أفضل لكم أن تعروا أبعاد ذلك»
ثم يتوجه الشاعر بالاتهام للدول الكبرى:
لقد غزو العالم بالإرهاب وبالتخريب
الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي
غزوا الدول الصغرى في آسيا وإفريقيا وأمريكا
اللاتينية

ثم ينادي الشاعر على العالم للحد من قوة رؤساء
الدول الكبرى وغطرستهم:

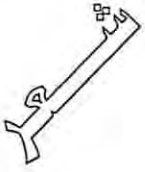
قبل أن يتحول هذا الكوكب
إلى جحيم

فالشاعر، انطلاقاً من حس العدل الذي يبعثه في القلب الانتماء إلى الإسلام، يفيض بالمرارة لما يرى في العالم اليوم من الظلم، ويود أن يعود العدل ليسود هذا العالم قبل أن يتحول إلى جحيم.

هذه الإطلالة على العالم الشعري للشاعر الماليزي كما لا كفيفة بأن ترينا أن الإسلام لا يزال حياً في قلوب الشعراء والفنانين المسلمين في أصقاع العالم الإسلامي المترامي الأطراف. كما ترينا أن مقاصد الإسلام في روحية ودينية لا تزال تبعث الإلهام في نفوس هؤلاء الشعراء، وفي هذا إشارة إلى أن الأدب الإسلامي لا يزال بخير برغم التراجع الذي نشهده على الساحة الإسلامية في نواح عديدة. إن الأدب الإسلامي لا يزال يحمل المشعل لينير درب هذه الأمة، ولا يزال الصوت الحادي لركبها.

الهوامش:

- (١) هذا المقطع والمقاطع التالية من القصائد من ترجمة الكاتب نقلاً عن ترجمات للقصائد إلى اللغة الإنكليزية، قام بها الشاعر نفسه في بعض الأحيان وأشخاص آخرون أحياناً أخرى.
- (٢) عنوان القصيدة هو عبارة عن كلمة مرحة يقصد بها السخرية.
- (٣) يذكر هنا أن أعداداً كبيرة من الماليزيين تطوعوا ولكن لم تسنح لهم الفرصة للقتال إلى جانب القوات العربية في حرب حزيران العام ١٩٦٧ م.



قَدْ بُحَّ صَوْتُنَا *

للشاعر الماليزي : أكمل بن الشيخ الحاج محمد زين

إننا قد رأينا الكواكب السوداء على مبعدة

من ضباب الرصاص

فقطبت الشمس جبينها ومضت

وقد أمعنا النظر

كيف أن الأم ، والأطفال الأبرياء

يمدون أيديهم ملتجئين الرحمة

أيها الشهداء قد قرأنا مرثيتكم

أقوال الجسد البشري

لقد شاهدنا انصباب الدم

الذي يفيض بأرضكم

خاضباً مدينتكم

عزاءنا العميق لكم

قَدْ بُحَّ صَوْتُنَا .

* * *

إخواننا

ها نحن إخوانكم في الدين

معاً نصلي كل وقت

من كل ركن

نبعث بتعازينا

بينما الأجساد الجامدة

ترسل إلى الموقف الأخير .

سنة عشر منا يهتفون

وقد بُحَّ منا الصوت

ونحن نندب الناس

الذين ليس لديهم وقت

ليسلموا عليكم

ليس لديهم الوقت كيما يحملوا السلاح معكم

وعلى كل حال فإننا نفهم

لأجل من أنتم تسقطون .

* من ديوان «تنفيس» جمع كمالا ورزيي س . س . وأحمد غزالي ، ترجمة عارف كرفي أبو حضيري وإسماعيل محمد

عارفين والحاج محمد بخاري لوبيس (كوالامبور ١٩٩٤).

حاج بلا راحلة

بقلم / أنور بدر الدين

كان يتقلب على فراشه أرقاً ، ينتظر بزوغ ضوء الشمس بفارغ الصبر ، فقد أضرت به الحشرات الصغيرة التي لم تجد لنفسها مكاناً خيراً من ثيابه ترتع فيها ، لقد أضنته الأوساخ التي علا بعضها بعضاً فوق جلده ، حتى لم يعد هو نفسه يعرف اللون الحقيقي لذلك الجلد .

كان دائماً يهرش هنا وهناك ، وكثيراً ما كانت يده تذهب بشكل تلقائي ناحية أعضائه ، فقد كانت تلك الحشرات تحب الأماكن التي يكثُر فيها الشعر الذي امتلأت جنباته بالأوساخ ، كما أنه كان يقلب جفنيه في سماء جبال السلسلة الشرقية المشربة في السماء ، كأنه يرسل برسائل تُطمئن ذويه على أنه مازال حياً ، ولكنه على كل حال ليس بخير .

شريرة .

أستد ظهره إلى جذع الشجرة ، وقد ظهر تحت ضوء الشمس بأسمال بالية ، كانت في الأصل ثياباً مرموقة ، يوم أن لبسها في أواسط أوروبا ، في يوم من أيام سنة خلت ، ووضع في جيبه ثلاث قطع من الفضة ، كانت الحد الأدنى لكل مقاتل يريد أن يكون صليبيّاً ، ليستطيع أن يأتي مع الحملة الصليبية ، التي استمر توافدها على الشرق قرنين من الزمان .

لقد اهترأت تلك الثياب ، كما اهترأت معها الأحلام الجميلة الكبيرة ، التي كان حملها عشية قدومه إلى الشرق حاجّاً ، فلست ترى الآن على رأسه إلا قلنسوة قديمة ، قد تراكمت عليها الأوساخ ، وضعها فوق رأسه انحسر عنه الشعر إلى الخلف ، حتى كأن فيضاً جاء عليه فتركه صليداً ، إلا من شعيرات استطاعت أن تستقر على الجوانب البعيدة من وسط الجمجمة ، ولقد طالت تلك الشعيرات ، واتسخت ، وتجمعت ، حتى تحولت إلى كتل صغيرة منتنة ، أما لحيته فقد طالت وتشعثت ، وزاد من شعشعها ما يعلق عليها يومياً من غبار جديد ، وعرق غزير ، نتيجة العمل المضني المستمر ، الذي - لولا القهر - لا يستطيع القيام به ،

وعندما أضاءت الشمس ، وأذن الله لنهار جديد بالبداية ، أسرع تلقاء شجرة الصنوبر العالية المتطاولة التي تقوم على كتف الوادي ، كرقيب يشهد مصارع العظماء ، وتقلب الأحداث ، وتطل على ذلك السهل الذي لا ينقطع العشب فيه في فصل من فصول السنة ، فيحيل الأرض إلى ربيع دائم ، تعلوه هذه الأشجار الباسقات ، التي تزيد المكان جمالاً إلى جمال ، ويقطع عليك منظر الخضرة من مكان إلى مكان انتشار خيام المجاهدين المتفرقة المتقاربة في آن .

كما يقطع صمت المكان صوت العصافير الكثيرة المنتشرة فوق الأشجار العالية تقفّت من ثمارها ، أما على الأرض فقد كانت جلبة الخيل ولجمها وصهيلها ، ونهيق الحمير ، وأصوات قطعان الخراف تنبعث من كل مكان مؤذنة بقدوم يوم جديد .

كانت خيول المسلمين تقضم العشب قضمًا ليلاً ونهاراً ، فإذا ما اشتد لفح الشمس ، وطن الذباب ، وجعل يقف على جلودها ، طفقت تلوّح بأذنانها ، طاردة الذباب من مكان إلى مكان ، وكثيراً ما كشر رأس منها عن أنيابه ، ملتفتاً إلى ناحية من جسمه ، دافعاً أذنيه إلى الخلف ، ثم يجعل يلوّك جلده ليرريحه من ألم بسيط أحدثته ذبابة

السنين . قال بهاء الدين : حالاً يا مولاي السلطان . وانطلق يعدو كالسهم ، حتى إذا وصل إليه ألقى عليه التحية ، وخاطبه بلطف ، أن أقبل معي ، فإن السلطان قد أرسل بطلبك . تعجب الرجل ، إذ هذه هي المرة الأولى التي يدعى مثله فيها إلى سلطان ليقابله ، ثم ما لبث أن تبددت دهشته ، إنه أسير ، ولعل السلطان رأى فيه رأياً ، إنه يريد قتلي لا شك ، أو من يدري ؟ لعله يريد أن يطلق سراحني ، أو يريد أن يمن عليّ فأعمل بين خدمه ، بالضبط - قال في نفسه - هذا هو ما يريد السلطان ، إنه نظر إلى شيخوختي فأشفق عليّ .

رفع قلنسوته من بين ركبتيه ، وثبتها على رأسه ، ثم توكأ على جذع الشجرة الضخمة ، وحرك يده اليسرى في الهواء ، كأنه يستعين بها ، وتتم بكلمات مقدسة عنده ، وانطلق متثاقلاً خلف الجندي ، يصعد في التل القريب لتقاء السلطان ، ولما أن وصل إليه قبل الأرض بين يديه ، وقال بلغته ما يعني بالعربية : مولاي السلطان : أنا بين يديك أسمع وأطيع .

نظر إليه السلطان وقال : أيها الشيخ : من أي البلاد أنت ؟ وما أن فهم الشيخ الكبير عبارة السلطان حتى تدرجت دمعتان من عينيه المتهللتين ، وجعل يتنفس بصعوبة بالغة ، ويحاول أن يكفكف دموعه بكفه المهترئ ، فتخونه أصابعه ، ويحاول الكلام وهو يزم شفثيه ، كطفل تلقى تأنيباً فهم بالبكاء ، ولكنه كان يجد نفسه في كل مرة وشفثاه تنفرجان بعضهما عن بعض ، ثم يقطع تنفسه المتلاحق كلماته فلا يستطيع أن يجيب .

أعاد السلطان سؤاله ، من أي البلاد أنت ؟ رفع الشيخ رأسه إلى صلاح الدين ، بعد أن استجمع ما أبتقت له السنون من قوة وقال : يا مولاي إنني من بلاد بعيدة ، لو أردت الوصول إليها لاحتجت لسنة أشهر أو سبعة أشهر . قال السلطان : مادام الأمر كذلك فما الذي حملك إلى هذه البلاد لتقاتلني ؟ ! قال الشيخ : يا مولاي ، قال رجال الكنيسة : إنها أرض تقطر عسلاً ولبناً ، وقد وعدهم الرب المسيح بها ، وإنه منجز لهم ما وعدهم به ، وإن فيها قوماً كفاراً ، دنسوا قبر الرب المسيح ، وأفسدوا البلاد ، وظلموا العباد ، ولا بد من تطهير الأرض المقدسة منهم ، والحج إلى كنيسة القيامة . ثم هز رأسه

وطال شاربه حتى صرت تتحير ، إذ كيف تعرف اللقمة طريقها إلى فمه وسط هذه المتاهة المتننة ؟ !

ألقى بظهره إلى جذع الشجرة ، واتجه نحو مصدر نور الشمس ، وقد وضع قلنسوته بين يديه ، وجعل يقتل كل حشرة تبرق تحت ضوء الشمس ، منطلقاً من تلك القلنسوة القذرة ، كما كان بين الحين والحين يحك ظهره بجذع الشجرة يمناً ويساراً ، لعله يريح جلده المقرح من لدغات البراغيث والقمل .

كان هذا واحداً من آلاف الأسرى الذين وقعوا في يد المسلمين ، بعد تحرير عكا ، وأكثر الساحل الفلسطيني ، وقد أتي بهم ، واصطفوا حول خيام المسلمين فيما يشبه معسكر اعتقال .

وكان يخطر بين تلك الجموع المترامية الأطراف رجل مديد القامة ، جميل المحيا ، تزين وجهه لحية جميلة ، تزيد وقاره وقاراً ، وتشع وجناته نوراً لكل من يراه ، كان يأتي ويذهب مدججاً بسلاحه ، شفتاه لا تتوقفان عن الحركة ، تتمتمان بأدعية وأذكار مأثورة ، إنه يعتقد بأن المؤمن يجب ألا يترك ثانية واحدة من عمره القصير تذهب من دون ثواب ، فإذا كان الوقت لا يتسع لصلاة أو صيام أو صدقة أو جهاد ، فليس أقل من أن يلهج بالذكر ، ليكتب الوقت له لا عليه .

كما كانت جموع الأمراء والجنود والباعة والرعاة لا تنقطع عن هذا السيد المحبوب ، كل يأتي إليه مسرعاً ، يطلب حاجته ، أو يحدثه بما يريد . فيقف السيد حائياً على كل واحد حنو الوالد على ولده ، مبتسماً ابتسامته المحبة التي تشد العدو إليه بلة الصديق ، يحدثهم مصافحاً إياهم ، مقبلاً عليهم بقلب مفتوح ، حتى إذا خف مقدم الناس عليه ، حانت منه التفاتة لتقاء الشجرة الكبيرة ، فرأى الشيخ المتهدم جالساً يعبث ببراغيشه وقملته ، تحت نور الشمس ، الذي يلعب من بين أغصانها ، وكأن فراسته قالت له : إن وراء هذا المسكين قصة . فنادى جندياً من جنوده : بهاء الدين . قال الجندي : لبيك يا سيدي السلطان . قال : اذهب إلى ذلك الرجل الجالس تحت الشجرة ، وتبسط معه في الكلام ، وهاته إليّ دون أن تدخل الروع إلى نفسه ، لقد كفاه ما يحمل فوق كتفيه من ثقل

عندما كانت خيول صلاح الدين تقول : نحن هنا !

كما كانوا يوزعون رسوماً تذكارية يظهر عليها القبر المقدس يُدّسه جواد أحد المماليك، وأخرى مرسوم عليها الرب المسيح يسوقه محمد أمامه، فكانت هذه تزي في نفوسنا الحقد عليكم، والشوق الشديد لتطهير الأرض المقدسة من شركم ورجسكم. قال صلاح الدين: وهل اكتفى الرهبان والكرادلة بتهيج الجماهير ضدنا؟ قال الشيخ: لا يا مولاي السلطان، فلقد خلع قساوسة ورهبان وكهنة مسوحهم، وتسربلوا بالدروع، كما قرر بعضهم أن يسعى إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام، وهم يستجدون الحسنات أسفاً على سقوط القدس بأيديكم. وامتنع آخرون عن بيع صكوك غفران الحبر الأعظم إلا لمن تطوع صليبيًا. وهز الشيخ رأسه في أسى وهو يقول: وماذا أقول لك يا مولاي، إنها قصة طويلة. قال صلاح الدين: هدى من روعك أيها الشيخ الضعيف ولا تبتئس، وأخبرني ما الأمانة التي تمنّاها؟ قال الشيخ: أطل الله بقاء السلطان، وماذا يتمنى شيخ مثلي أسير في أيديكم، وقد تخلى عنه أقرب الناس إليه، وترك أهلاً وأولاداً في بلاد بعيدة؟ إنني لا أتمنى أكثر من أن أحج إلى القبر المقدس قبل أن يأخذ الرب سره مني، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل! فالقبر المقدس بين أيديكم، وأنا اليوم أسيركم. قال صلاح الدين: هدى من روعك يا شيخ وأخبرني، ماذا تقول فيمن يهين لك هذه الفرصة لتحقيق أمنيته الغالية؟ قال الشيخ: وقد بدأت يدها ترتجفان، وشفته تنضمّان بعضهما إلى بعض: لا تسخر مني يا مولاي السلطان، أو بعد هذا العمر الطويل، وهذه التجربة التي مرت علي من خلال معاشرتي لكبار قومي يمكن أن أصدق وعداً؟ ثم استدرك وكأنه أحس أنه أساء الأدب، أنا أسف يا مولاي فما تعودت من الكبار والوجهاء في بني قومي إلا خلف الوعد، ونقض العهد، وانتهاك الأعراض، وتضييع الأمانة، والاستهتار في كل

ميتاً وشمالاً وهو يقول: لقد خدعونا يا مولاي السلطان، لقد خدعونا. قال صلاح الدين: وكيف صورونا لكم أيها الشيخ؟ كيف استنفروكم لقتالنا؟ قال: يا مولاي السلطان، لقد حضر بطريك (صور) بعد سقوط بيت المقدس بأيديكم، وأطلع البابا أوربانوس الثالث على المصيبة الكبيرة التي حلت بالنصرانية، فتأثر البابا تأثراً عظيماً، ولم يستطع تحمل الصدمة، فوقع من فوره ميتاً، وتناهدت القصة إلى أذان العامة، فنسجوا قصصاً خيالية كثيرة. قال السلطان: مثل ماذا؟ قال الشيخ: يا مولاي، قالت العامة: لولا أن البطريك لم يذكر أمام البابا صوراً مروعة لوحشية المسلمين وهمجيتهم، لما سقط البابا ميتاً. وأردف: وعندما سمع الكرادلة قصص العامة حاولوا أن يستفيدوا منها إلى أبعد الحدود، وأن يهيجوا بواسطتها مشاعر الجماهير. قال صلاح الدين: وماذا حدث بعد ذلك؟ قال الشيخ: اعتلى عرش البابوية - يا مولاي - غريغوريوس الثامن، الذي أعد العدة من فوره، ومنذ اليوم الثاني لاعتلائه عرش البابوية أعد حملة صليبية جديدة، وجعل يحث المسيحيين القادرين على حمل السلاح على ذلك. قاطعه السلطان قائلاً: وما الأساليب التي استخدمها؟ قال الشيخ: لقد أمر بالصلاة والصوم جهراً، كما نذر هو والكرادلة أن يعيشوا على الصدقات، وألا يركبوا خيولاً قبل إعادة احتلال بيت المقدس، وأن يطوفوا بالدول المسيحية سيراً على الأقدام وهم يحملون الصليب. قال السلطان: وهل برّ غريغوريوس بما وعد؟ قال الشيخ: أجل يا مولاي، ولكن أجله لم يمهله، إذ بقي على كرسي البابوية مدة شهرين ثم توفي. قال صلاح الدين مقاطعاً: وانتهت بذلك الاستعدادات. قال الشيخ: ليت الأمر كان كذلك يا مولاي، فلقد اعتلى العرش (كليمانس الثالث)، وكان أكثر إصراراً من سبقه، لقد جدد الغفرانات والامتيازات التي منحها أسلافه للذهابين إلى الأرض المقدسة، وهذا الإصرار، وهذا العناد من جانب رجال الدين جعلنا أكثر تصديقاً لعدل قضيتنا، وإيماناً بحقنا فيها. يا مولاي السلطان، لقد كان وعظه يطوفون الممالك المسيحية يستزلون اللعنات عليك وعلى جيشك أمام مستمعهم،

لا تحزني

شعر / حامد محمد الشريف

غداً إن غفت جثتي راقدة
وأضحت معالمها جامدة
فلا تجهشي طفلي في البكا
فما للبكا هاهنا فائدة
غداً إن فقدت أباك هناك
لدى اللهو أو ساعة المائدة
وحين تمر الثواني على
دروبك يا حلوتي باردة
فلا تحزني طفلي حينها
ولا تذرني دمة واحدة
غداً طفلي عند سح السحاب
على الأرض أدمعه الراحدة
وعند انكباب رياح الشتاء
على شرفتي في المسا ساجدة
فلا تجزعي لغيابي المريب
ولا تنهري الدمعة الشاردة
ومري على القبر عند الغروب
وقولي أنا يا أبي صامدة

شئ حتى روح الإنسان ليس لها قيمة عندهم، فلا تؤاخذني أن عممت الحكم. قال السلطان: يا شيخ أنت أسيرنا منذ فترة ليست بالقصيرة، فهل أسأنا إليك؟ قال الشيخ: معاذ الله يا مولاي، ولكنه هم أقض مضجعي، وأنهك قوتي، غربة ليس لها نهاية، وذل الأسر شئ قاس يا مولاي السلطان، وخاصة على رجل مسن مثلي، ولكن شهد الله أنني ما رأيت فيكم إلا ما يكبره الإنسان ويعظمه، الصدق والأمانة، والشجاعة والنبل، واحترام الإنسان، وإكرام النساء، والعطف على الصغير. والحيوان، واحترام العهد، وكل ذلك لا يذكر أمام انتظامكم في الصلاة بين يدي إلهكم، لتقدموا له قداسكم الذي يتكرر مرات كثيرة كل يوم، دون قسيس يقوم أمامكم بطقوس العبادة. نزلت من عيني صلاح الدين دمة، وانحدرت مسرعة نحو لحيته، وقد تقطب حاجبه قليلاً، وزم شفتيه كمن يريد أن يبكي، ثم ما لبث أن رفع عينيه إلى السماء وهو يقول: اللهم رب كل شئ ومليكه، لك الحمد في الأولى والآخرة، زين الإيمان في قلوبنا، وكرة إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم لك الحمد، أنت هديتنا وربيتنا على دين نبيك محمد ﷺ، ثم خفض رأسه نحو الشيخ وقال: أيها الشيخ ما رأيك فيمن يحقق لك الأمنية الغالية بزيارة البيت المقدس؟ قال الشيخ: تعود لتسخر مني يا سيدي السلطان! قال السلطان: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قال الشيخ: إذا لا أجلس في مكان ولا أقابل شخصاً إلا أخبرته بما صنع. قال السلطان: ولو كان ذلك الفاعل مسلماً من أعدائك؟ قال الشيخ: ولو كان مسلماً. قال السلطان: أتفي بعهدك وتبر بوعدك، أم تفعل كما يفعل كبار قومك؟! فابتسم الشيخ، وضحك صلاح الدين ملء فمه، ثم قال للشيخ: لقد حققت لك أمنيته. والتفت إلى جهة مرافقه وقال: بهاء الدين، إلي بحصان من خيرة جيادنا، وزاد وسلاح، وخذ الشيخ ليغتسل، ثم خذه إلى الحلاق ليصلح من شأنه، ثم سيره محروساً إلى بيت المقدس، إنه يريد الحج، ولا نغنع مؤمناً صادقاً في إيمانه مهما تكن ملته من التقرب إلى الله على طريقته مادام في عهدنا.